

-تمهيد:

ظَلَّت البلاغة رداً من الزمن بالخطابة والإقناع والإمتاع والبيان، ولكن الأبحاث الجديدة أعادتها إلى الواجهة. ووجدت في البلاغة مبتغاها في التعبير عن حاجاتها. و"غطت البلاغة حقل الاستعمال الخطابي للغة في كليته"¹ فهي مطلب رجل السياسة، ورجل الإعلان، والمحامي، والمتكف. وزاد تعامل البلاغة الجديدة مع الخطابات النصية المختلفة، لسانيا وأسلوبيا وحجاجيا وتداوليا وسيميائيا،² كما وجدت البلاغة في الحياة العامة التي هي ميدان التفاعل الإنساني، مادتها الأولى. وهكذا تحولت البلاغة من صنعة أدبية وزينة كلامية إلى نمط فكري يساعد على فهم العالم بغية امتلاكه.

فالاستعارات التي كانت تُعرَّف بأنها: "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض"³ وتُعتبر بالنسبة لعدد كبير من الناس أمراً مرتبطاً بالخيال والزخرف البلاغي والاستعمالات اللغوية غير العادية؛ ولهذا يمكننا الاستغناء عنها، وصارت هذه الاستعارات مع التحول المعرفي حاضرة في حياتنا اليومية، وليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها.⁴

ونقل التحول المعرفي البلاغة من دراسة النص الأدبي وجمالياته، إلى إدراك الظواهر البلاغية بوصفها ظواهر مجتمعية. تتطلب دراستها تطوراً في مناهج وإجراءات تتيح فهمها وتحليلها وتقييمها وربما تقويمها. وهذه الظواهر نادراً ما تحظى باهتمام النقاد والباحثين في الأدب؛ لأن الاعتقاد السائد أن مثل هذه الظواهر هي من اهتمامات علماء الاجتماع والسياسة وغيرهم، وهو الأمر الذي انتبه إليه عماد عبد اللطيف في بلاغة الجمهور منذ سنوات؛ ليعزز بها التواضع المعرفي بين البلاغة العربية ودراسة

بلاغة الجمهور

من أدب النخبة إلى خطاب العامة

د. الربيع بوجلال

جامعة محمد بوضياف -

المسيلة.

الملخص:

ظلت البلاغة منذ نشأتها تواجه حملات التشكيك في قيمتها وجدواها، فقد حملها أفلاطون انحطاط القيم في مجتمع أثينا، واعتبرت سبباً في بروز السفسطة، وتجاوزت مهاجمتها عبر العصور تتغير عبر فنونها، من خطابية، إلى إقناعية، فإمتاعية، ثم حجاجية وتداولية، إلى استعارات نحيا بها، وهاهي اليوم تفتك من العلوم استثنائها بدراسة مواضيع لم يألف الأدب دراستها من قبل، لتخرج بها دائرة البلاغة من تأثير المخاطب إلى تأثير المتلقي. وتنتقل عبرها الممارسة البلاغية من أدب النخبة إلى خطاب العامة. في ما صار يعرف بـ"بلاغة الجمهور".

وتأتي هذه المقالة لتبرر دواعي الانتقال التي فرضها العصر، وطلبها البلاغة لبقائها وضمان استمراريتها.

Résumé en français:

Depuis ses débuts, la rhétorique a été remise en question par des campagnes de remise en question de sa valeur, qui a provoqué la dégénérescence des valeurs de la société athénienne et a été considérée comme une raison pour l'émergence de la sophistication, et a dépassé ses agresseurs à travers les âges, à travers ses arts, de la rhétorique à la persuasion, au divertissement et au pèlerinage. Et ici aujourd'hui porte atteinte à la science de l'étude exclusive de sujets non familiers avec la littérature étudiée auparavant, pour sortir du cercle de la rhétorique de l'impact de l'adresse à l'impact du destinataire. La pratique rhétorique de la littérature d'élite est transmise au discours public, dans ce que l'on appelle désormais "l'éloquence publique"

Cet article vient justifier les raisons de la transition imposée par l'âge et son appel à la rhétorique pour qu'elle reste et assure la continuité.

فبلاغة الجمهور هي أجوبة علمية وأكاديمية الأسئلة من قبيل ما دور الجمهور في عملية الاتصال؟ ما الاستجابات الفعلية التي يُنتجها متلقي فعلي معين في سياق واقعي محدد؟ ما طبيعة العلاقة بين المتكلم والجمهور (حاكم/محكوم، واعظ/متدين)؟ ما الوسائط المستخدمة في نقل الخطاب (تلفزيون، إذاعة...) وما العوامل المؤثرة في استجابات الجمهور؟ وكيف تُنتج تأثيرها؟ وكيف يتفاوض الجمهور مع منتج الخطاب حول مصادر القوة؟ وما دور استجابات الجمهور الأتية في توجيه الخطاب، وفي دعم أو مقاومة سلطة صاحب الخطاب؟ وما الاستجابات المحتملة الأكثر قدرة على مقاومة الخطاب السلطوي؟ وما أشكال الإكراه على الاستجابة؟ وكيف يمكن مقاومتها.¹¹

، وهذه الأسئلة وغيرها لا تستطيع أن تجيب عليها نظريات القراءة، التي تُركز على المعاني المجردة المحتملة أو الفعلية لنص ما،¹² لأن مادتها الدراسية تعنى بالقراءة والشعر والمسرح والقصة وغيرها من أدب النخبة. فتأسس بذلك مشروع جديد في دراسات الأدب، يختلف عن الاستجابات التي تُعنى بها "نظرية القراءة" ويدرس الاستجابات اللفظية وغير اللفظية التي يُنتجها الأشخاص.

العاديون في سياقات تلقي الخطابات العمومية، كحفلات الغناء، وتعليقات الفيسبوك وهتافات جماهير الملاعب الرياضية... وهي عبارة عن انتقال للممارسة البلاغية في بلاغة الجمهور من الأدب الرفيع إلى حقل الخطابات العادية.¹³

- لماذا بلاغة الجمهور؟

تاريخ البلاغة يحفل بنصوص وخطابات تلاشت مثل فقاعات الصابون؛ لأن الجمهور رفضها وأخرى ترفع أصحابها على الجمهور

التواصل وتحليل الخطاب. فما هي بلاغة الجمهور؟

بلاغة الجمهور :

إن تصاعد الاهتمام بمبحث البلاغة صاحبه تزايد الاهتمام بالمتلقي في العلوم الانسانية والاجتماعية: السميولوجيا، الاتصال، الدراسات الأدبية، الترجمة، اللغات ..، فكانت البلاغة تتويجا لجهود الأبحاث المعرفية التي تضع المتلقي في صلب العملية المعرفية، وتبين دوره في البناء الخطاب بعد أن كان مقتصر على المؤلف أو النص.⁵

فالجمهور المعاصر يتلقى كل يوم خطابات بلاغية مختلفة، سماعا أو مشاهدة أو مقابلة، تتنوع وظائف هذه الخطابات بتنوع أغراض منشئها وسياقات تداولها. كما تتنوع أشكال الاستجابة لها والآثار التي تحدثها بتنوع الجمهور الذي يستقبلها. وجميعها لها غاية واحدة هي التأثير على الجماهير.⁶

من هذا المنظور تولدت الحاجة إلى تعديل مسار البلاغة السكاكية، والنظر في الارتباط الوظيفي للبلاغة بالخطابة، وبأنها "تقنية للخطاب الإقناعي"⁷، وتجديد الخطاب البلاغي، والاتجاه نحو بلاغة جديدة - بلاغة الجمهور- تُعنى بخطابات الفضاءات العمومية، وتعطي أهمية كبيرة للطريقة التي يستجيب بها الجمهور، والتعامل معها بوصفها استجابات بلاغية.⁸ وتركز أكثر على ردة فعل المخاطب باعتباره طرفا فاعلا، ينتمز الفرصة ويحسن الإشارة،⁹ ويمتلك قدرة التمييز بين خطاب يحاول السيطرة عليه وخطاب يحاول تحريره،¹⁰ وقراءة ما بين السطور في تلك الخطابات وتفنيدها وتمييزها، ومحاولة إنتاج استجابة بلاغية طبيعية موازية لها، يستطيع بواسطتها أن يُدخل تغييرات جوهرية على رسالة المتكلم بما يحقق أهدافه ومصالحه.

قسما مما يستطيعون أن يسلبوه من أملاك الأغنياء".¹⁸

و الجماهير بهذا الوصف سلبية ودونية، خاضعة طامعة، متأثرة غير مؤثرة، قابلة للتأثير عليها بواسطة المال، ويمكن السيطرة عليها بواسطة، و مرد هذه النظرة للجمهور مردها ارستقراطية أفلاطون. لأن قيادة الجماهير والتأثير عليها، في نظر " كسينوفون". الذي قاد فرقة من الجنود المرتزقة.¹⁹

لا تتطلب المال والقوة والعنف إنما الشخصية القوية والقدرة على الإقناع. فحق الحاكم على الرعية الطاعة، وهذا الواجب لا ينتزع من المحكومين، "ولكن التوصل إلى هذا الحق لا يكون عن طريق استخدام القوة وإشاعة الخوف، فالرجال ليسوا مثل قطعان الغنم التي لم يعرف عنها أنها تمردت، أو ثارت يوما على راعيها أو حتى اعتصمت بالإضراب وامتنعت عن الرعي، وإنما يقاد الرجال ولا يساقون، ولما كان من طبيعة هؤلاء ألا يستمروا على الولاء والطاعة إلى غير نهاية فإن قيادتهم والحصول على طاعتهم يتوقف على ما للحاكم من هيبة وشخصية قوية وقدرة على الإقناع".²⁰

فإذا كان "أفلاطون" أثر بلاغة المال /الاقتصاد؛ للتأثير على الجماهير فإن " كسينوفون" اعتمد بلاغة الإقناع، وفي المثاليين ظل الجمهور متأثرا غير مؤثر. والمفهوم السلبي لانقياد الجماهير بسهولة في هذه التعريفات لم يستمر طويلا، إذ أثبتت الدراسات التجريبية والميدانية خطأ النظرية التي صاغت مفهوم "الجمهور السلبي" لتتوجه الدراسات إلى الاهتمام بالجمهور كطرف مهم في العملية الاتصالية، ومحاولة فهم العوامل التي تتحكم في الجمهور، حين أصدر " غوستاف لوبون" كتابه "سيكولوجيا الجماهير" وأول ما حاوله من

فرفضوه، فلم يكتب لإنتاجهم العبور منهم إليه، وكان هذه النصوص أو الخطابات ولدت ميتة. وأخرى حقق فيها منتجوها ذواتهم، ووجد الجمهور فيها ذاته، فنالت الحظوة والقبول عنده، وحققت ما كان يُراد منها¹⁴؛ فالخطاب بعيداً عن الجمهور وعن ردود فعله لا ينتج عنه شيئا، ويظل جامداً، فلاستجابات الجمهور دور مهم في حياة الخطابات وزيادة عمرها. ولعل النظرة الضيقة التي سادت عن البلاغة أنها ممارسة تفصل البلاغة عن مشكلات المجتمع، بالرغم أن البلاغة لم تكن ولن تكون يوما ممارسة فردية، فهي من متلق إلى سامع، وما حصل هو نقلة نوعية احتاجها العصر اليوم، والمتمثلة من وصف الخطاب بالبلغ إلى وصف الاستجابة بالبلغة. وترتب عليه تعريف البلاغة بأنها العلم الذي يقوم بتحديد مهارات إنتاج الاستجابات البلغة، ويمرّن على ممارستها. ويعرف الجمهور البلغة بأنه من يقوم بإنتاج استجابات بلغة.¹⁵

هذا الانتقال بررته متطلبات العصر وتغير طرق التعبير وسائله. ولن يستطيع المقال حصرها ولكن يمكن الاكتفاء بذكر أهمها وهي:

1: الجمهور من متأثر إلى مؤثر:

الجمهور لغة "جمهور كل شيء معظمه، وجمهور الناس: جلمهم، وجماهير القوم: أشرافهم.¹⁶ واصطلاحا: ظهر مصطلح الجمهور لأول مرة في اللغة الإنجليزية ويشير استخدامه إلى تجمع مادي يوجد في مكان محدد. ومرتبطة بالمستمعين الذين يشهدون حدثا أو مناسبة خطابية. في سياقات تواصل وجهها لوجه.¹⁷ والجماهير اليونانية أو الطبقة الشعبية برأي أفلاطون "تشكل أكثر الطبقات عددا وأقوى هذه الطبقات عندما تجتمع في مجلسها الشعبي وهي على استعداد لأن تتبع زعماءها طالما قدموا إليها

منها، وسقوط كثير من الممثلين وحتى رجال الدين من أعين الناس التي كانت تكن لهم المحبة والاحترام، قبل أن يتبين أنهم مجرد دمي في يد السلطة. وهكذا صار الجمهور مؤثرا بعدما كان متأثرا.

2: الجمهور هو المكسب:

ساد إلى وقت قريب أن الجمهور متلق وسامع ومنفذ، ولكن في الوقت الحاضر صار معروفا أن الجمهور يتألف من فروقات داخلية لا حصر لها ولا يمكن اختزالها إلى وحدة.

أو إلى هوية واحدة ثقافات مختلفة وأعراف مختلفة، وتوجهات جنسية مختلفة، وأشكال مختلفة من الحياة، ونظرات مختلفة إلى العالم ورغبات مختلفة، فالجمهور هو أعداد وافرة من جميع هذه الفروقات المفردة²⁶ تشارك بردود أفعالها، أو استجاباتها المحسوبة قبلا في عناصر الخطبة، أو الكتابة أو الفن وحتى إنتاج السلع. وصار السياسي يريد كسب الجمهور في حملاته الانتخابية، وينتقي من الكلام البليغ ما يرضيه ويقربه منه، وصوته مركز عناية واهتمام بالنسبة للمرشح، وقراره هو المرجح. كما صار الجمهور يوجد بشكل أساسي في خيال المؤلف، وهو مركز عمل العديد من الجماعات الأكاديمية، مثل حقول البلاغة والإنشاء ونظرية القراءة، والنظرية الأدبية والنقد الأدبي²⁷. كما يحاول الفنانون أن يقنعوا الجمهور أن ما يقدمونه يسلط الضوء على مشاكله وما يعانيه، وهم من يتبنى إيصال صوته إلى الساسة وأصحاب القرار، ويطمعون في أن يتكرم الجمهور الكريم بالإقبال على المسارح، ودور السينما والاستماع إلى الراديو والجلوس أمام التلفاز؛ ليتأكد من صحة ادعاءاتهم، ويضمنون بإقباله عليهم ربحهم الوفير، وشهرتهم على حسابه.

هذا المنظور هو تقديم مفهوم علمي لمعنى الجمهور حصرا. فقد لاحظ "أن كلمة جمهور تعني في معناها العادي تجمعا لمجموعة لا على التعيين من الأفراد، أي تكون هويتهم القومية أو مهنتهم أو جنسهم، وأيضا تكن المصادفة التي جمعهم"²¹.

ومن هنا اتجه الاهتمام والولع إلى دراسة هذه الظاهرة الاجتماعية، وتتبع تركيبها وبنيتها وتكوينها، وصفاتها ومميزاتها. وأنواعها، وأثارها في الفرد، والمجتمع والتراث الاجتماعي²². واستمر مصطلح الجمهور يستعمل من قبل الكتاب في دلالات مختلفة ومتباينة، والميوعة في هذا المفهوم مردها للمتغيرات العديدة التي يرتبط بها عند استحضارها ذهنيا.

وتأتي هذه العناية بالجمهور لزيادة الجماهير الغفيرة²³ والحاجة إليها من قبل السياسي والاقتصادي والفنان والصانع والمزارع و... الخ، فهذا الكم الهائل يحتاج إلى إنتاج كثير، والإنتاج يحتاج إلى سوق واسعة، والسوق الواسعة تحتاج إلى مستهلك، وهذا المستهلك هو الجمهور المحدود الثقافة العادي الذكاء. فالجمهور هو الإنسان العادي²⁴. وغاية الخطاب البلاغي أن يستجيب لنوازع الإنسان العادي وميوله، وهنا تتراجع البلاغة الرفيعة على استحياء إذ لا تجد لها مولا، لأن المليارات التي تُنفق يمكن أن تُسترد بسهولة إذا ضُمن تسويق المنتج.. فالمستهلك المستهدف يجب أن يكون شخصا عاديا، محدود الثقافة، عادي الذكاء، إذ هنا تكمن فرص التسويق الواسع الانتشار²⁵. وقد استطاع هذا الجمهور العادي أن يرد على خطابات المترشح والممثل ورجل الاقتصاد وغيرهم في أكثر من موقف، بالرغم من المقاطعة أو الإقبال، منها فكرة (دعها تصدأ)، أو (خليها تصدي) ومقاطعة بعض أنواع المشروبات لأن اسرائيل تستفيد

وأظهرت فعاليتها التداولية، وأثرها الاجتماعي والسياسي، وردا على بلاغة السلطة القديمة، التي تحاول في أبسط صورها كبت حرية الشعوب، انطلقت بلاغة الجمهور، بانتفاضة الغضب المصرية من عدة صفحات على "الفيديوك"، واتخذت من ميدان التحرير ساحة للاعتصام حتى تنفيذ الطلبات، حيث لم يكن الشباب الذي اعتقدت النخب والسلطة أنه خامل وعاجز أو عابث ولاه، في حاجة إلى أصول مرجعية لترشيد الحراك، وكانت كلمات الحرية والعدالة، والعيش الكريم، كافية لتجاوز العصبية ولنسف النزاعات الزعاماتية، فلم تقدر الجماهير برامج سياسية ولا حزب طلائعي، فهنا اختلت منظومة القيادة الرائدة المهمة والجمهور التابع²⁸ ساعتها فقط أحست السلطة أن بلاغة الجمهور هي استجابات بلاغية، ورد فعل صادق وقوي، على خطابات سياسية لم تستطع فصاحتها وعباراتها الكاذبة أن تغير الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة، وتصلح ما اعتُبر فساداً في ظل حكم الرئيس المصري محمد حسني مبارك. وانطلقت عبر صفحات الفيديوك، دعوات عربية شعبية لتأييدها، وبالرغم من كل ما كان يُقال عن الشعوب العربية، وعن العداء بينهم.

وبنفس الطريقة انتفض السترات الصفر بعريضة على فيديوك، تضمنت خطبة بلاغية ترفض ارتفاع أسعار المحروقات، موضحة كيف يثقل هذا الارتفاع كاهل المواطن العادي أصحاب الدخل المحدود، أو أصحاب المشاريع الصغرى ويخنقهم. فكانت الاستجابة بلاغية مكانها الشارع الفرنسي، وزمانها شهر ديسمبر، وأجبرت هذه الاستجابات الحكومة الفرنسية، بعد نحو ثلاثة أسابيع من الاحتجاجات، على التراجع، وأعلن الوزير الأول،

كما لفت الجمهور انتباه الصناع والزراع؛ لاعتقادهم أن الجمهور كما يتأثر فهو يؤثر على مشاريعهم المستقبلية، وديمومة إنتاجهم واستمراريتها مرهونة باستهلاك ما ينتجونه، ودفع هذا الاعتقاد بهم إلى تحليل هذا الجمهور، ودراسة أذواقه، ومحاولة فهم العوامل المتحركة في ذلك. وهكذا صار كسبه وإرضائه يمر عبر بلاغة شهرية تعتمد الإيجاز، والدوال الأنسب للمقام التواصلية تهيمن القصيدة النفعية عليها، والمتثلة في دفع الجمهور بواسطة الوسائل البلاغية الإقناعية والتأثيرية بطرائق مختلفة إلى التصرف برد فعل بلاغي ايجابي لشراء المنتج. وهكذا صار الكل يختار العبارات البلاغية التي تسعى إلى إشباع حاجات الجمهور.

- بلاغة الفيديوك:

أحدثت الثورة الرقمية التي عرفها العالم طفرة حضارية في شتى المجالات في العصر الحديث، وبالرغم من قيام بعض الأشخاص بتشويه الصورة الصحيحة للتكنولوجيا وأهميتها، فإنها ما زالت تحافظ على بعض المزايا التي أحدثتها في العصر الحديث، والتي من بينها إضافة تسمية أخرى لأنواع الجمهور (الجمهور الافتراضي) وإعادة دراسة مفهوم الجمهور، من دراسات التأثير إلى التركيز على تلقي الجمهور وآليات استجابته.

فقد تم الانتقال من ماذا تفعل وسائل الإعلام بالجمهور؟ إلى ماذا يفعل الجمهور بوسائل الإعلام؟. فقد استغل الجمهور وسائل التكنولوجيا (الفيديوك) لصالحه وبالعكس ما تريده السلطة فالمفهوم السائد عند السلطة، أن الجمهور مستهلك لكل منتجاتها ويستهلك كل ما يقابله، سواء كان مفيداً أو ضاراً.

والحديث عن بلاغة الفيديوك يستدعي الحديث عن بنيتها الأولى حيث وُلدت

شكل خاص جوهره المنافسة من أجل قياس القدرات وضمن أقصى تحديد لها³²

واعتبرت الرياضة عبر تاريخها الإنساني إحدى الوسائل الاجتماعية المقبولة لتفريغ الدوافع والنوازع المكبوتة وتخفيف مشاعر المعاناة والتوتر التي يستشعرها الفرد حيال ضغوط الحياة الاجتماعية المختلفة.³³ ومن هنا يمكن أن نفهم أن العلاقة بين الرياضة والسياسة علاقة وطيدة وموغة في القدم؛ ولذلك تسعى الدول إلى المشاركة في المنافسات الخارجية بفرق وطنية لاكتساب شرعية دولية، وتحويل الانتصار في المجال الرياضي إلى انتصار سياسي، يعمق الشرعية والولاء ويدعم العقيدة السياسية للنظام.³⁴

ولقد كان فريق جبهة التحرير الوطني سباقا للدفاع عن استقلال الجزائر. بعد صدور قرارات مؤتمر الصومام والتي من بينها إنشاء تنظيمات تابعة لجبهة التحرير الوطني، وبعد ميلاد الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين والاتحاد العام للعمال الجزائريين، رأت جبهة التحرير الوطني ضرورة إيجاد تنظيم رياضي يحمل اسمها ويكون سفيرا لها في المحافل الدولية؛ لما للرياضة من شعبية على المستوى العالمي وخاصة كرة القدم، فقررت تأسيس فريق لكرة القدم من اللاعبين الجزائريين المنتمين إلى البطولة الفرنسية، ووجهت نداء إلى هؤلاء اللاعبين للالتحاق بالثورة³⁵

كما ساهمت الرياضة في حل مشاكل الساسة فقد ساهمت مباراة كرة القدم التي أجريت بين فريقي الاتحاد السوفييتي (السابق) وألمانيا الفيدرالية (السابقة) في أجسبورج Augsburg في سبيل تقليل التوتر بين البلدين؛ وتركت انطبعاً طيباً لدى الشعب الألماني.

أن لا ضرائب تستحق أن تعرض وحدة الأمة للخطر"،

في محاولة منه لاستمالة الجماهير للكف عن مواصلة الاحتجاجات، لكن الرد من هؤلاء كان سلبيا، وقرروا مواصلة الاحتجاج بالدعوة إلى مظاهرات جديدة.²⁹

و هكذا أثبت واقع الحال أن التحولات السياسية/الاجتماعية جاءت من رحم تنشئة شبكية لم تدرکہا السلطة، إذ صار استخدام وسائل التواصل الاجتماعي الجديدة ليست مجرد أداة تواصل كما تراها السلطة، بل تحمل قيما تسلت بقوة إلى جيل الشباب، وهي تقوم على ممارسات تكسر حاجز الخوف من السلطة، وبواسطتها ابتدعت الجماهير أشكال جديدة للتعبير والاحتجاج السياسي تفوقت على كل الوسائل السياسية التقليدية³⁰ وهي قادرة أن تقلب نظام الحكم كما في مصر، وتزعزع نظاما آخر كما في فرنسا.

- بلاغة الجمهور الرياضية/السياسية:

الرياضة أحد الأنشطة الإنسانية المهمة، والراقية للظاهرة الحركية لدى الإنسان، وهي الأكثر تنظيما، والأرفع مهارة، عرفها الإنسان عبر عصوره وحضاراته المختلفة، فبعض الحضارات اهتمت بالرياضة لاعتبارات عسكرية، وبعضها الأخر مارس الرياضة لشغل أوقات الفراغ، بينما وظفت الرياضة في حضارات أخرى كطريقة تربية³¹. وكلمة رياضة هي ترجمة لمصطلح "sport" في اللاتينية "Disport" والأصل الايتمولوجي لها هو "Disport" ومعناها التحويل والتغيير، "ولقد حملت معناها ومضمونها من الناس عندما يحولون مشاغلهم واهتماماتهم بالعمل إلى التسلية والترويح من خلال الرياضة". ويعرفها ماتيفيف "Matveyev" بأنها " نشاط ذو

الرياضة وغيرها والتي ما كانت لتتم لولا دعمه، مما يكسبه شعبية فالرئيس المصري "حسني مبارك" لم يكلف نفسه الذهاب لموقع فاجعة غرق العبارة "السلام 98" وهي في طريقها من ميناء "ضبا" السعودي إلى ميناء "سفاجا المصري"، وفضل تقديم صورة بلاغية تبين الاهتمام بما تهتم به الجماهير المغلوبة على أمرها، تتمثل في زيارة معسكر المنتخب، ليحث اللاعبين في المباراة النهائية، وبقي تركيز السلطة وإعلامها على بطولة الأمم الإفريقية وتهميش وقع الفاجعة، مخافة منها أن تفسد دموع الحزن حالة الاستنفار الكروي في القاهرة.³⁹

وليس "حسني مبارك" فقط من استغل ملاعب الكرة لأغراض سياسية فكذلك فعل "صدام حسين" اثر وصول منتخبه لكأس العالم في 1986 لرفع معنويات شعبه في حربه مع إيران. وكذلك غيره من الرؤساء خاصة دول العالم الثالث، حتى صار التعبير عن الانتصارات والهزائم في ميادين كرة القدم، يكاد يوازي أو يفوق انتصار أو سقوط جيوشها في ساحات المعارك.

2: بلاغة الرياضي

إن الأفعال البلاغية التي تحمل رسائل مشفرة من الزعماء السياسيين في الملاعب ليست حكراً عليهم، لأن الملاعب بهم وحدهم لا تعني بالنسبة لهم شيئاً، فالملاعب وجدت من أجل اللاعبين، ومعظمهم من رحم الطبقة الكادحة، فاستغلها اللاعبون في المناسبات الرياضية، لإنتاج استجابة بلاغية موازية أو مضادة لخطاب سلطوي يرى الجمهور قطعاً قابلاً للتلاعب به، وتوجيهه دونما إرادته. ومن أمثلة ذلك "إشارة رابعة" التي استخدمها عدد من اللاعبين المصريين وغير المصريين* أثناء تمثيل فرقهم على المستوى القاري أو الدولي، وهي

كما كانت هناك حالات كثيرة استخدمت فيها الرياضة كوسيط دبلوماسي، ولعل أقرها عندما لعبت بعض فرق المملكة العربية السعودية ودولة الكويت مع فرق جمهورية مصر العربية. تمهيداً لعودة العلاقات التي انقطعت في أعقاب معاهدة السلام مع إسرائيل، حيث استقبلت فرق البلدين بكل ترحاب في مصر وتبادلت الهدايا التذكارية بين اللاعبين والإداريين. فكان لهذه المباريات أثر طيب في تهيئة المناخ الشعبي العام لعودة العلاقات الرسمية³⁶

1: بلاغة السلطة

ما تستفيد السياسة من الرياضة أن الجمهور كلما كان اهتمامه بالرياضة أكثر كان اهتمامه أقل بالنسبة للسياسة، فالرياضة تسهم في ضبط السلوك الاجتماعي وتوجيهه نحو الاهتمام بقضايا غير سياسية، وبالتالي صرف الجمهور وإلهائه عن المشكلات الاجتماعية والسياسية من ناحية، والإبقاء على وضعه الراهن، وإخراج المشاعر السياسية الكامنة والمكبوتة لدى الجماهير في أشكال غير سياسية. واقتصرت فرحة الجماهير على مجرد الفوز بلعبة كرة قدم، وقد يصاب شعبا كاملاً بخيبة الأمل؛ لأن فريق بلاده خرج مهزوماً من الملعب. بينما يصمت الجميع وكأنهم تحت تأثير المخدر عندما تنتهك مقدسات وتداس حقوق وكرامات وتسفك دماء بشكل يومي. وهذا ما جعل المدرسة الماركسية تؤكد أن الألعاب الرياضية في إطارها البرجوازي ليست إلا "أفيون الشعوب".³⁷

النشاط الرياضي خطبة سياسية غير لفظية. يستغلها السياسة عن طريق وسائل الإعلام المساندة لوصف القائد السياسي³⁸ عند حضوره بالتشريف والتكريم للألعاب الرياضية، وللدلالة على الاهتمام، ويعمدون إلى إعطاء أرقام على منجزات حكومته في ميدان

مكتوب عليه "فلسطين" بعدة لغات تضامنا منه مع الفلسطينيين في أحداث غزة.

وترجمت بلاغة الجمهور إرادة الشعب في تغيير نظامه السياسي و فرحته بسقوط النظام الدكتاتوري القديم ،بأيام قليلة بعد الثورة التونسية، حيث سحب لاعب منتخب نسور قرطاج "سلامة القصداوي"، لافتة كتب عليها عبارة "تونس حرة" بعد إحرازه هدفاً في نهائي بطولة إفريقيا للاعبين المحليين في السودان، التي توج بها المنتخب التونسي. وقد تناقلت وسائل الإعلام العالمية ذلك الشعار السياسي، الذي نبع من رحم الثورة التونسي.

3: بلاغة الجمهور

كما ساند الجمهور الرياضيين وشجعهم ،فإنه لم يتخل عن القضايا التي رد بها اللاعبون على خطاب السلطة، بل أثار قضايا عدة نقلها من رحم المعاناة الشعبية ليواجه بها السلطة ،فتعددت أنواع الخطابات الجماهيرية في الملاعب الرياضية التي تفضح المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وعجزها وفشلها في بلورة استراتيجية شاملة (سياسية اقتصادية إعلامية)، خاصة وأن الجمهور في الملعب يفلت من الرقابة الأمنية، فيخصص حيناً كبيراً في هتافه وأغانيه ويقاطته في الملاعب ليعبر بوساطة استجابات بلاغية كنائية واستعارية ومجازية وصريحة وضمنية، عن المشاكل الاجتماعية ، كالفساد والمخدرات، ومن الهتافات الشهيرة عن الهجرة: "روما ولا أنتوما"، و " بابور اللوح" و"مكاش الرايس كاينة تصوير". كما لا يغفل عن القضايا العربية، خاصة القضية الفلسطينية، إذ يتكرر في الملاعب: "فلسطين فلسطين. الشهداء"، و"جيش وشعب معاك يا غزة".

ويبدي الجمهور رأيه في مواقف سياسية أخرجت السلطة وكادت تتسبب في أزمات، لعل

ترمز وفقاً لتصورات من أشهرها رمزاً للمعتصمين في ميدان رابعة العدوية بعد فض اعتصامي "رابعة والنهضة". ولكن الشعار تخطى الحدود الجغرافية ببلاغته العالية وصار عبارة بلاغية في الملاعب لا تقتصر على المصريين فقط، بل تعبر عن التضامن والانتصار للمكان والفعل الثوري. وهكذا تحول شعار رابعة إلى بلاغة جمهور يُرد بها على أقوال وأفعال السلطة، بل صارت السلطة تخاف هذا الشعار ولونه.

وبالرغم من سلبية رد السلطة على بلاغة الجمهور بمعاقبة اللاعبين، ومن خلالهم الجماهير بحجة غير منطقية، تفتقد إلى البرهان والصدق، "بعدم خلط السياسة بالرياضة، مشددة على عدم وجوب" إقحام الأحداث السياسية في الوسط الرياضي" وردت الجماهير بكل بساطة على صفحات الفيسبوك والتويتر و...مستفسرة! ماذا يعني رفض المنافسة مع إسرائيل؟! والجواب يثبت أنه لا يمكن الفصل بين أعضاء الجسد الواحد.

وببلاغة جمهور غير لفظية وخطية تحمل رسائل مشفرة تعبر عن امتعاض الشعوب وتقايس مسؤوليها اتجاه القضية الفلسطينية، يتبنى اللاعبون في كرة القدم ما تريده جماهيرهم؛ ليعبروا عن آراء وتوجهات الشعوب اتجاه قضايا هامة كان من الفروض أن تتولاها حكوماتهم! ومن أمثلة ذلك شعار "التضامن مع غزة" الذي ظهر به اللاعب المصري "أبو تريكة" وهو يرتدي قميصا مكتوباً عليه "تعاطفا مع غزة". في بطولة أمم إفريقيا بغانا، ومرة أخرى وفي مناسبة أخرى يرد بقميص مكتوب عليه "نحن فداك يا رسول الله" للرد على رسوم الكاريكاتير المسيئة للنبي - صلى الله عليه وسلم - في إحدى الصحف الدنماركية. وكذلك فعل اللاعب "كانوتيه" الذي أشهر قميصا

والوطنية، وتنتقد حكوماته وحتى بعض الشركات كما فعلت جماهير "الرجاء البيضاوي" في لافتة أثناء المباراة، مكتوب عليها "كازا إيفنت.. ديكاغ"، في إشارة إلى سخط الجماهير الرجاوية على أداء الشركة المذكورة، خاصة في ما يخص بيع التذاكر، التي عانى منها الأنصار الأمرين، دون الحديث عن طريقة تديرها لمسألة صيانة عشب ملعب محمد الخامس.

ولأن السلطات أو النوادي الرياضية لا تستطيع التحكم في هتافات الجماهير فإن الجمهور يعتبر الملعب مسرحا للتعبير الحر واستجاباته ما هي إلا فيض من غيض.

خاتمة :

إن النظرية الجديدة والتي تمثلها بلاغة الجمهور هي نظرية في رأينا تضيف للبلاغة العربية اهتمامات تواصلية أخرى ترتبط بالحياة اليومية، لتظهر مرونة البلاغة وقدرتها على التواصل مع نظريات التلقي، والتواصل وتحليل الخطاب، وتريد أن تسحب علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلوم الاتصال وغيرهم من العلوم إلى ميدان الأدب، لتثبت أنها منطقة بحث مشترك بين عدد من الحقول المعرفية، وتفتك من هذه العلوم استنثارها بدراسة مواضيع لم يألف الأدب دراستها من قبل، لاستكشاف استجابات جماهيرية تخرج دائرة البلاغة من تأثير المخاطب إلى تأثير المتلقي على المخاطب.

الهوامش:

أقربها زمنيا ما قام به أنصار عين مليلة في إظهار تضامنهم مع القضية الفلسطينية وقضية القدس، الذي يظهر صورة نصفها سلمان ملك السعودية ونصفها الآخر ترامب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، في إشارة أن الصورة تعبر عن مجهين لعملة واحدة، وتصف ملك السعودية بأنه ضد القدس وفلسطين مثله مثل ترامب، وهي استجابة بلاغية تميز الجماهير الجزائرية في موقفها من القضية الفلسطينية، فقد انجاز المشجعون الجزائريون في مباراة ودية أقيمت بملعب جزائري عام 2016 بين المنتخبين الأولمبي الجزائري ونظيره الفلسطيني، وحمل الجمهور الأعلام الفلسطينية، و كانت فرحتهم غامرة عندما سجلّ لاعب فلسطيني هدفا في مرمى منتخب بلدهم. هذا التعاطف الكبير يعود إلى عقود مضت، فمنذ استقلال الجزائر عن فرنسا، تحوّلت الجزائر إلى ملتقى زعماء الحركات الثورية، الذين كانوا يحاولون استلهاهم نموذج الثورة الجزائرية، ومن بينهم منظمة التحرير الفلسطينية، التي فتحت مكتبها بالجزائر عام 1965، كما أن إعلان ياسر عرفات ميلاد الدولة الفلسطينية، كان من الجزائر عام 1988.

ومن المواقف المخرجة للسلطة أيضا، مقابلة نادي "اتحاد الجزائر" مع نادي "القوة الجوية" العراقي، في بطولة دوري أبطال العرب، فقد انسحب لاعبو الفريق العراقي، بعد أن كرر الجمهور الجزائري "الله أكبر" صدام حسين" وهو ما اعتبره العراقيون "طائفية"، قبل أن يتطور الأمر إلى التهديد بأزمة دبلوماسية.

ولا يقتصر هذا الأمر على الجزائر ففي كل الدول تعبر جماهير الملاعب عن رأيها القضايا الدولية

2 جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، المغرب ط2014، 1، ص: 5.

¹ عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، منشورات الاختلاف، ط2009، 1، ص: 23.

3 يشرح أبو هلال أغراض الاستعارة بقوله: "وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه" ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، 1998، ص: 268.

4 ينظر: جوزج لاكوف ومارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد الحميد جحفة، دار توبوقال للنشر، ص: 21
5 ينظر: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، منشورات الاختلاف، ط 2009، ص: 29.

6 ينظر: "مستقبل الدرس البلاغي" مشروع بلاغة الجمهور بين البلاغة المقاومة ونقد الخطاب في محاضرة ألقاها الأكاديمي المصري عماد عبد اللطيف بكلية آداب تطوان المغربية

<http://www.startimes.com/f.aspx?t=27137949>

7 عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، المرجع السابق، ص: 29.
8 ينظر: "مستقبل الدرس البلاغي" المرجع السابق.

9 يقول الجاظ: "وقد قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة" الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2003، ج 1، ص: 91

10 ينظر: عماد عبد اللطيف، بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ص: 18
11 ينظر: مجموعة مؤلفين، بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، دار شهرير، العراق، ط 2017، ص: 147، 146.

و ينظر أيضا:
https://www.alaraby.co.uk/culture/2017/7/23/بلاغة_الجمهور_أضواء_على_القارئ_القاهرة_إسلام_أنور

12 ينظر: مجموعة مؤلفين، بلاغة الجمهور مفاهيم وتطبيقات، المرجع السابق، ص: 147، 146.
13 ينظر: نفسه ص: 145، 144.

(14) ينظر: وليد إبراهيم قصاب، الشعر والمتلقي، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ع 2007، 106، ص: 43..

15 عماد عبد اللطيف، بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، المرجع السابق، ص: 20

16 ابن منظور، لسان العرب، مج 4، ص: 149.

17 توماس أسلوان، موسوعة البلاغة، تر: عماد عبد اللطيف، ومصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2016، ج 1، ص: 216.

18 لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، 1991 الاسكندرية، ص: 256

19 نفسه، ص: 253.

20 نفسه، ص: 254.

21 غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، تر: هاشم صالح، دار الساقى، ط 1991، ص: 53. وينظر: يسقمون فرويد، علم نفس الجماهير، تر: جورج طرايبيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 2006، ص: 9.

22 حاتم الكعبي، السلوك الجمعي، مطبعة الديوانية الحديثة، العراق، 1973، ص: 75.

• - يمكن أن تضم كلمة الشعب كلمة الجمهور، "فالمفهوم التقليدي للشعب هو أنه وحدوي، فالسكان يتصنفون بجميع أنواع الفروق، لكن الشعب يختزل ذلك التعدد المتنوع بالوحدة، ويصنع من السكان هوية واحدة: "الشعب" واحد والجمهور على العكس من ذلك، هو متعدد.

- فمن المنظور الاقتصادي والاجتماعي يمكن تعريفه أنه: "ذات العمال المشتركة... الذي منه يحاول الرأسمال الجمعي أن يصنع جسم تطوره العالمي. فالرأسمال يريد أن يحول الجمهور إلى وحدة عضوية مثل الدولة التي تريد أن تحوله إلى شعب"

ينظر: مايكل هارت، وأنطونيو نيغري، الجمهور بالحرب والديمقراطية في عصر الإمبراطورية، تر: حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية

بيروت، للترجمة، ط 2015، ص: 33، 32.

23 "فقد تسلم القرن العشرون من القرن السابق عليه بليون ونصف بليون من الناس، فسلم للقرن الحادي والعشرين ستة بلايين، أي أنه ضاعف سكان العالم أربع مرات. ينظر: جلال أمين، عصر الجماهير الغفيرة، دار الشروق، القاهرة، ط 2003، ص: 9.

24 خوسه أورتغا إي غاسيت، تمرد الجماهير، المرجع السابق، ص: 43.

25 ينظر: جلال أمين، عصر الجماهير الغفيرة، دار الشروق، القاهرة، ط 2003، ص: 16.

26 مايكل هارت، وأنطونيو نيغري، الجمهور بالحرب والديمقراطية في عصر الإمبراطورية، تر: حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية بيروت، للترجمة، ط 2015، ص: 32، 33.

27 توماس أ.سلوان، موسوعة البلاغة، المرجع السابق، ص:216.

• يري ماسلو أن إشباع حاجات الإنسان يخضع لترتيب هرمي، حسب أهمية الحاجة فوضع الحاجات الفيزيولوجية في بداية الهرم، تليها الحاجة إلى الأمن، ثم تأتي الحاجة إلى الانتماء والحب لتتوسط الهرم، وتليها بعد ذلك حاجة التقدير والاحترام، لتأتي في قمة الهرم حاجة تحقيق الذات، أخذاً بعين الاعتبار أن هذه الحاجات مرتبة هذا الترتيب الهرمي على أساس قوتها التي تتفاوت من حاجة لأخرى، على الرغم منكونها جميعاً حالات فطرية، فتزداد قوة الحاجة كلما انخفضت في ترتيبها التنظيبي والعكس صحيح. ينظر: لزهري مساعدي، نظرية الانتماء، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص:34 نقلاً عن: شريفة جنان، عقود العمل ودورها في إشباع حاجات خريجي الجامعة حسب هرم ماسلو، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، إشر: نصر الدين جابر، جامعة بسكرة، 2015/2016، ص:76

28 ينظر: مجموعة مؤلفين، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة، المركز العربي للدراسات والأبحاث السياسية، قطر، ط1، 2017

29 <https://www.maghress.com>

30 ينظر: مجموعة مؤلفين، العنف والسياسة في المجتمعات العربية المعاصرة، المرجع السابق، ص:

31 ينظر: أمين أنور الخولي، الرياضة والمجتمع، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، رقم 216، 1990، ص: المقدمة

32 نفسه، ص: 25.

33 نفسه، ص: 71

34 محمد أحمد علي مفتي، الدور السياسي للألعاب الرياضية، مجلة جامعة الملك سعود، مج5، 1993، ص:432.

35 بوداود عبد اليمين، مكانة ودور الرياضة الجامعية في المنظومة الرياضية الجزائرية، مجلة علوم وتقنيات النشاط

البدني الرياضي، مخبر علوم وتقنيات النشاط البدني الرياضي، جامعة الجزائر، 2009، ع0 ص:5.

36 أمين أنور الخولي، الرياضة والمجتمع، المرجع السابق، ص:110.

37 ينظر: محمد أحمد علي مفتي، الدور السياسي للألعاب الرياضية، المرجع السابق، ص:441.

38 نفسه، ص:448

39 ينظر: أكرم خميس، ثورة جيل التراس، المنظمة العربية لحقوق الانسان، ط1، 2016، ص:23

• احمد عبد الظاهر يرفع علامة رابعة ماتش الأهلي اورلانديونيهائي افريقيا .

- رفع الشارة أيضا اللاعب محمد يوسف رمضان بطل مصر والعالم لمنافسات الكونغ فو لمنافسات الساندا لوزن 90 كيلوجرام. حيث قام بارتداء قميص عليه شعار رابعة بعدما فاز في المباراة النهائية بدورة الألعاب القتالية لمنافسات الكونغ فو، التي أقيمت بمدينة سان بطرسبرج الروسية في أكتوبر 2013.

- اللاعب التركي (نيميرين) عندما سجل هدفا ورفع يده بشعار رابعة وبفس الشعار بادل الجمهور التركي اللاعب تأييدا وتضامنا

- وأطلقه كذلك لاعب جيو جيو توتسو محمد الجلاصي خلال فوزه ببطولة العالم للجيوجيو توتسو في كندا

- وظهر أيضا خلال حفل تأيين الرئيس الجنوب أفريقي الراحل نيلسون مانديلا في ملعب "اسويتو" في جوهانسبرغ - ورفعت جماهير غانا شعار رابعة في مباراة مصر مع غانا في التصفيات المؤهلة لنهائيات كأس العالم.

- رئيس الدولة "أردوغان" يرفعه في أكثر من مناسبة وقد أثار جدلا قويا أثنا رفعه في زيارته لتونس